

أصداء حطين والقدس في الشعر العربي

د. عمر الدقاق

منذ أن ظهر على الملأ عماد الدين زنكي وأعقبه ابنه نور الدين محمود في تصديهما للحملات الصليبية ابان القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي ، ومن ثم دخول البلاد العربية والمشرق الاسلامي على يديهما في طور التضامن والتوحد على نحو متعاظم ، أخذ الموقف العسكري ، في أعقاب سلسلة من المعارك المظفرة ، يميل لصالح العرب •

غير أن الصليبيين الذين هالهم الأمر ، حاولوا استعادة هيبتهم ، واستقدموا نجدات كبيرة من أوروبا ، ودخلت الحروب في طور جديد هو ما يعرف لدى المؤرخين بالحملات الصليبية الثانية ، وكانت وجهتها مصر كيلا يقع يوماً بيت المقدس وعكا وسائر ساحل الشام تحت رحمة الجيوش الاسلامية ، اذا ما قدّر للعرب أن يتحدوا • وكانت مصر ، في أواخر عهد الفاطميين ، غارقة في فوضى سياسية شاملة • وكان خليفتهم العاضد لدين الله طفلاً لا حول له ولا قوة ، فخلا الجو للوزراء ولرجال القصر ، واحتدم صراعهم على السلطة • واضطر شاور أحد حكام مصر الى الاستعانة بالقائد القوي نور الدين محمود والتحالف معه عسى أن يتغلب على خصومه • وكان أن مضى أسد الدين شيركوه ومعه ابن أخيه صلاح الدين على رأس جيش الى القاهرة سنة ٥٥٩ هـ • ولكن الصليبيين استطاعوا أن يهيمنوا على مقدرات مصر بعد أمد قصير ثم جهزوا حملة سنة ٥٦٤ هـ ، انطلقت من القدس وعكا لاحتلالها وجعلها في حوزتهم ، وتمكنوا من احتلال بلبس وارتكبوا فيها مجازر رهيبة . غير أن زحفهم قد توقف على أبواب القسطنطينية والقاهرة ، ثم اضطروا للارتداد على أعقابهم نتيجة لاستبسال المصريين وتضحياتهم الكبيرة . وما لبث صلاح الدين في السنة نفسها أن تولى الوزارة بعد عمه أسد الدين • واستطاع بذكائه وحسن تدبيره وعدله وسماحته أن يكسب محبة الشعب وولاء الجيش •

وأحس الفرنجة بالخطر المقبل الذي كانوا يخشون حدوثه من قبل في حال دخول مصر في حوزة نور الدين محمود . أما وقد أصبح العرب في الشام ومصر تحت قيادة واحدة قادرة على أن تطبق بكماشتها على أمانة القدس الصليبية ، فقد بدا للصليبيين أن خير سبيل للدفاع هو الهجوم ، وهكذا أعادوا الكرة من جديد لاستخلاص مصر لأنفسهم أو تولية من يرضون عنه حاكماً عليها ، فاحتلوا دمياط ، وراحوا يتحفزون للانقضاض على القاهرة . غير أن صلاح الدين بذل كل ما وسعه من جهد في التصدي لهذه الهجمة ، ثم خرج للقاء الفرنجة بنفسه على رأس جيش كبير فقهرهم ، وبعد حين في عام ٥٦٦ هـ خرج صلاح الدين من مواقع الدفاع الى مواقع الهجوم بعد أن نظم جيشه أحسن تنظيم وعبأه أفضل تعبئة ، فأغار على حصون الصليبيين في الساحل غارات موفقة ، وعاد مظفراً الى مصر بعد أن عظمت هيئته في النفوس . ثم آلت اليه الأمور بعد وفاة نور الدين محمود سنة ٥٦٩ هـ وتلقب بالملك الناصر . وكانت سنه سبعة وثلاثين عاماً .

واستطاع صلاح الدين بعد ذلك أن يحقق هدفاً كبيراً لا بد منه لبلوغ النصر الحاسم وهو توحيد شمل البلاد العربية ، فدانت له مصر والشام والموصل وبلاد الجزيرة وديار بكر والحجاز واليمن وجزء من بلاد المغرب ، وتدفق عليه المجاهدون من جميع تلك الأرجاء ، وانصبت موارد الأمة في سبيل حركة الجهاد (١) .

وبعد أن وطد صلاح الدين الأمور في مصر ودمشق وحلب ، وذل ما اعترضه من عقبات ، وأزال من تصدى له من الحكام خرج عام ١١٧٧ م على رأس جيش كبير يروم كسر شوكة الصليبيين ، ولكنه مع ذلك لم يفلح في تحقيق النصر المنشود لشدة تحصينات العدو ومنعة قلاعهم . فارتد الى مصر ، وجعل يزيد من استمداده في ضوء تجربته السابقة .

★ ★ ★

ان حياة حافلة بجلال الأعمال وروائع الانتصارات عاشها صلاح الدين زهاء ثلاثة عقود من السنين كانت جديرة بأن تشد اليها النفوس وتجذب نحوها القلوب ، فمنذ أن تولى صلاح الدين شؤون الادارة والحرب ، وهو ابن سبع وثلاثين من عمره انعقدت عليه أوسع الآمال في طرد الصليبيين واسترجاع الربوع المحتلة الى أهلها العرب .

وكان من طبيعة الأمور أن يواكب الأدب تلك الأحداث الجسام وينفعل بما تنطوي عليه من انتصارات باهرة كانت تهز ضمير الأمة ، وتلهب قرائح الشعراء ، وتشحن السنة الخطباء . وقد ذكر بعض الدارسين زهاء خمسين شاعراً (٢) ، منهم المصري والشامي والعراقي . . . كانوا يقدمون اليه حيث كان ، فيبادرون اليه مهنئين ، وينشدونه الأشعار مادحين وممجدين . وقد وصف العماد الأصفهاني بعض هذه المحافل من مثل ما أعقب سلسلة انتصاراته السابقة وذلك قبل معركة حطين واسترداد القدس ببضعة عشر عاماً فقال (٣) : « كنت جالساً بين يدي الملك الناصر صلاح الدين بدمشق في دار العدل فحضر الشاعر سماعة

الضريير وهو من أهل حمص ووقف ينشد هذه القصيدة في عاشر شعبان احدى وسبعين وخمسمئة » ، وقد استهلها بالغزل (٤) :

حيثك أعطاف القدود بيانها لما انثنت تيتها على كئبانها

وذكر العماد انه في اليوم التالي احتفل الحفل ، بحضور أهل الفضل ، فأنشد الشاعر بين يدي صلاح الدين (٤) :

لا يقعدنك ما حلوا وما عقدوا هم الذئاب، وأنت الضيغم الأسد

وكان ممن قصدوا الى دار العدل أيضاً بدمشق البهاء السنجاري ، وهو من الموصل فأنشد قصيدة مطلعها (٥) :

جردت من فتكات لحظك مرهفا وهزرت من لين القوام مثقفا

وكان صلاح الدين دائب الحركة كثير التنقل لا يكاد يستريح به جواده في أرض حتى ينهض الى أخرى . وحين بلغ حمص مرة وعسكر بالعاصي ، قصد الناس الى خيمته مرحبين ، وفيهم الشاعر مهذب الدين الموصلحي حيث قال من قصيدة (٦) :

وما خضع الفرنج لديك حتى رأوا ما لا يطاق من الكفاح

ملأت بلادهم سهلا وحزنا أسوداً تحت غابات الرماح

وكثيراً ما أرسل الشعراء بقصائدهم الى صلاح الدين وهم بعيدون عنه يقرئونه التحيات ويقدمون له التهاني عبر قصائد مطولة ، كما فعل سبط ابن التعاويذي من بغداد (٧) ، وأبو علي الحسن الجواني من مصر (٨) . وقد ضاع الكثير من هذا الشعر الغزير ، بل لم يبق من معظمه سوى القليل روت بعضه أو مطالعه كتب الأدب وكتب التراجم ، مثل كتاب الروضتين ، وخريدة القصر ، ومعجم الأدباء ووفيات الأعيان . . . وكثيراً ما يرد ذكر لشعراء مدحوا صلاح الدين دون أن نعثر لهم في ذلك على شعر .

وربما يكون الشاعر أسامة بن منقذ أمير شيزر وفارسها من أشهر الذين أرسلوا الى صلاح الدين مشيداً بآسه وحسن تدبيره ، وقد بعث اليه بجملة من القصائد ، الواحدة بعد الأخرى ، في اثر بعض الأحداث التي كانت تستجد عهدئذ بين الحين والحين ، من ذلك قصيدتان داليتان وثالثة ميمية وغيرها (٩) . . .

وكثيرون هم الشعراء الذين عاشوا في ابان القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي ، وعاصروا أحداث عصرهم وواكبوا حياة صلاح الدين الحافلة بجلائل الأعمال وروائع الانتصارات ، فبالإضافة الى الذين سبق ذكرهم كان لعمارة اليميني شعر حسن في صلاح الدين حينما أشاد بجيشه الجرار الذي آخره في مشارف دمشق وأوله في ضفاف النيل ، وأنه لولا بأس هذا البطل واستنقاذه مصر لتبدلت خريطة الاسلام في الشرق كله (١٠) :

جلبتم اليه النصر أوساً وخزرجاً وما اشتقت الأنصار الا من النصر
كتائب في (جيرون) منها أواخر وأولها بالنيل من شاطئ مصر
ولو رجعت مصر الى الكفر لانطوى بساط الهدى من ساحة البر والبحر

وهي قصيدة تنطوي على سجل حي لتلك المرحلة الحافلة بالأحداث .

على ان استرجاع الأرض ولا سيما بيت المقدس من أيدي الصليبيين كان الهاجس الملح
أو الأمل الكبير الذي كان يضطرب في نفوس العرب ويتجلى على ألسنة أدبائهم . ومن أمثلة
ذلك ما نجده في قول العماد الأصفهاني مخاطباً صلاح الدين وحاضاً إياه على مهاجمة القدس
وقسم ظهر الفرنج :

وما يرتوي الاسلام حتى تغادروا لكم من دماء الغادرين بها غُدُرا
فصَبُّوا على الافرنج سوط عذابها بأن تقسموا ما بينها القتل والأسرا
الى أن يصل الى بيت القصيد مطالباً بفتح بيت المقدس :

ولا تهملوا البيت المقدس ، واعزموا على فتحه غازين وافترعوا البكرا

والذي يعنينا في هذا المجال المحدود من شعر العماد الأصفهاني وغيره من الشعراء
المعاصرين لصلاح الدين هو تعبيرهم - كلما وجدوا الى ذلك سبيلاً - عن هذا الهم الدفين
الذي كان يعتلج في نفوسهم بل في ضمير العرب والمسلمين كافة ، انه استعادة بيت المقدس
ومسجده الأقصى وصخرته المشرفة ، وهذانما نجده أيضاً في قصيدة أخرى للعماد
الأصفهاني اذ يقول مناجياً الملك الناصر (١١) :

فسر وافتح القدس واسفك به دماء متى تجرّها ينظف
وخلّص من الكفر تلك البلاد يخلصك الله في الموقف

وانه لهاجس قديم سبق أن عهدناه منذ أيام عماد الدين زنكي ثم ولده نور الدين
محمود وتجلّى على ألسنة الشعراء والخطباء ولا سيما ابن القيسراني من قبل .

وحين غزا صلاح الدين ساحل فلسطين واستعاد غزة وعسقلان انتعشت الآمال واشتدت
العزائم ، وأخذ الجميع يتطلعون بلهفة واستبشار الى المرحلة التالية ونهاية المطاف .
وقد انفعل عمارة اليميني آنئذ بهذا الانجاز العسكري الهام ، وعبّر عن نشوة وطنية دينية
بالغة بذلك الانتصار الكبير فقال مشيداً ببني أيوب وزعيمهم :

غزوا عقر دار المشركين بغزة جهاراً ، وطرف الشرك خزيان مطرق
وزاروا مصلى عسقلان بأرعن يفيض اناء البر منه ويعبق
أضفت الى أجر الجهاد زيارة الخليل ، فأبشر ، أنت غاز موفق

وفي رأي العماد الأصفهاني أن هذا الفتح لمدن الساحل لم يكن من صلاح الدين سوى سلّم نحو تحقيق الهدف الكبير ، حيث يتطلع كل عربي تطلع المشوق اللاهف الى ما بعده وهو فتح بيت المقدس الذي طال انتظاره :

وهيئت للبيت المقدس لوعة يطول بها منه اليك التشويق
وغزوك هذا سلّم نحو فتحه قريباً ، والا رائد (١٢) ومطرق
هو البيت أن تفتحه ، والله فاعل فما بعده باب من الشام مغلق

لقد كان الهدف واضحاً أمام القائد صلاح الدين منذ أن امتلك زمام الملك وتولى زعامة الأمة . غير أن الأمور مرهونة بأوقاتها ، إذ كان لا بد من تحقيق جملة من الأعمال قبل خوض المعركة الفاصلة ، وهكذا بعد سلسلة من المعارك والغزوات تم خلالها اقتحام حصون وقلع واسترداد قرى وبلدان انعطف صلاح الدين الى تدعيم الدولة وبنائها ، وتوطيد أحوالها وأوضاعها . ووجد من الحكمة أن يتظاهر أمام العدو بالمسالة والمهادنة ، فعقد معه صلحاً لمدة عامين (١١٨٠) ، دأب خلالها على تجميع القوى وحشد الطاقات ، وكذلك تعبئة الموارد واعداد الجيوش . حتى إذا ما تم له ذلك ، وتدفع عليه المجاهدون من جميع الأصقاع ، بادر على عادته في بحث الخطير من الأمور ، الى جمع خلسائه وأعوانه ، واستدعاء قاداته وأركانها ، وخاطبهم بما قر في نفسه ، بعد الاتكال على الله ، من الزحف على بيت المقدس ، واسترجاع سائر الربوع المحتلة من أيدي الفرنجة ، واستئصال شأفتهم من بلاد العرب والمسلمين . فلقى من مجلسه كل المساندة والتأييد ، وبشروه بنصر من الله وفتح قريب .

وفي يوم مشهود توقف صلاح الدين في أعلى جبل المقطم بالقاهرة وهو على صهوة جواده عند مدخل القلعة (التي عرفت بعدئذ بقلعة صلاح الدين) ومن حوله أشد المحاربين بأساً وأعظم الفرسان شأناً ، خرج الناس لتوديعه وقد غلبهم التأثر ، واستبدت بهم الحماسة ، وعلت ألسنتهم بالدعاء له ، فاستمع في سرادقه الى الخطباء والشعراء أملين الخير على يديه حتى يظهره الله على أعدائه . ومما جاء على لسان أحد المتكلمين يومئذ قوله متمثلاً بقول الشاعر القديم (١٣) :

تمتع من شميم عرار نجد فما بعد العشية من عرار

فتطير الناس من هذا القول .

وقد قر في نفس صلاح الدين أن دمشق ينبغي أن تكون منطلق جيوشه ليوم الحسم ، فبقي فيها حيناً من الوقت يوطد دعائم ادارته ، ويعبىء موارده ، ويعد جيشه وعتاده ، مقارباً الساحل . وفي نهار الجمعة الرابع عشر من ربيع الآخر سنة ٥٨٣ هـ (١٤) انطلق صلاح الدين بجيشه قاصداً الى مدينة طبرية ، فتمهل على سطح الهضبة ينتظر قدوم الصليبيين الذين اجتمعوا في أعداد كبيرة بمرج صفرية بأرض عكا ، ولكنهم لم يتحركوا من أماكنهم ،

اذ انقسموا بين محبذ لمهاجمة صلاح الدين ، ومؤثر بقاء جيش الصليبيين متمركزاً في مواقعه ليحسن التصدي للعرب .

ولم يطل بهم الأمر كثيراً ، اذ قام صلاح الدين بهجوم مباغت على طبرية ، واقتحمها في ساعة واحدة .

واذ بلغ الفرنجة ما حدث سخطوا واستبد بهم القلق ، وهبوا يستدركون من أمرهم ما فرط . فساروا لمقاتلة صلاح الدين ، وسرعان ما بلغوا مشارف حطين القريبة من مواقعهم في ظاهر عكا ، وكان ذلك في يوم قائظ من مطالع شهر تموز عام ٥٨٣ هـ ، ١١٨٧ م ، فانبرى للقائهم صلاح الدين ولما يستريحوا من عناء الطريق ووهج الشمس ، وحمل عليهم بشدة على رأس كتيبة كتائب من فرسانه ، وساندته في ذلك مجموعات متلاحقة من جنده وهم يصيحون بصوت هادر (الله أكبر) . وخلال نهارين من الهول تشتت شمل الفرنجة وراحوا يرجعون القهقري . فتبعهم العرب وأحاطوا بهم من كل جانب ، وأطلقوا عليهم السهام ، ثم حملوا عليهم بالسيوف . فاعتصمت أعداد كبيرة منهم في اليوم الثاني بتل حطين (١٥) فضايقتهم العرب أشد المضايقة . ويروي المؤرخون أن بعض الأشداء من جند صلاح الدين عمدوا الى افساد مياه آبار الأعداء كما أشعلوا النيران في الأعشاب اليابسة المحيطة بمواقعهم ، فزاد هذا من ارتباكهم على حين كانت ضربات الجيش العربي تنهال عليهم دون هوادة ، فتصدع كياناتهم وانفرط عقدهم ، واكتظت الأرض بقتلاهم ، وعندئذ لم يجدوا بداً من الاقرار بالهزيمة فاستسلموا للأسر بجموع كبيرة خوفاً من القتل .

وكان في عداد الأسرى الناجين الملك (غودي فري) وأخوه الملك (بلدوين) و (أرناط) حاكم الكرك والشوبك (١٦)

وانجلت تلك المعركة الكبرى الفاصلة عن انتصار سريع حاسم لجيش العرب ، وكان ذلك يوم الجمعة ، الرابع والعشرين والخامس والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة ٥٨٣ هـ ، الموافق للثالث والرابع من شهر تموز ١١٨٧ م . وبدا واضحاً لكل من العرب والفرنجة ان سقوط القدس بات وشيكاً .

لقد كانت معركة حطين شديدة الوطأة على الصليبيين ، ولم يسبق أن ذاقوا مثلها منذ أن قدموا من ديارهم غازين . وقد هزموا هزيمة نكراء كما تحطم جيشهم الجرار ، فراحوا بين قتيل وأسير . وكان يوم تاريخي أغر في حياة العرب والمسلمين بات مقروناً على صعيد واحد بأمجادهم الكبرى أيام بدر والقادسية واليرموك . . .

وانطلق صوت الشعر يومئذ مهللاً لهذا النصر العظيم ، وتكاثر الشعراء بباب صلاح الدين مهنيين ، وتوالت عليه القصائد من كل حذب وصوب ، وكلها رضى واستحسان وسعادة واستبشار . ومن هذا القبيل قصيدة للعلي بن الساعاتي (١٧) يقول فيها بنشوة عارمة (١٨) :

جلت عزماتك الفتح المبينا فقد قرت عيون المؤمنين

رددت أخيدة الاسلام لما
 فيا لله كم سرت قلوباً
 وما طبرية الا عروس
 حصان الذيل لم تقذف بسوء
 فضضت ختامها قسراً ، ومن ذا
 قضيت فريضة الاسلام منها
 تهز معاطف القدس ابتهاجاً
 فلو أن الجماد يطيق نطقاً
 تخال حماة حوزتها نساء
 تميل الى المثقفة العوالي
 يكاد النقع يذهلها ، فلولا
 أدت على الفرنج - وقد تلاقى
 ففي (بيسان) ذاقوا منك بؤساً
 فلا علم الشام وساكنوه
 وقلب القدس مسرور ، ولولا
 غدا صرف الزمان لها ضميناً
 ويا لله كم أبكت عيوناً
 ترفّع عن أكف اللامسينا
 وسل عنها الليالي والسنينا
 يصد الليث أن يلج العرينا
 وصدقت الأماني والظنوننا
 وترضي عنك مكة (١٩) والحجوننا
 لنادتك : « ادخلوها آميناً »
 يغوضون الحديد مقنعيننا
 فهل أمست رماحاً أم غصونا
 بروق الماضيات لما هدينا
 جموعهم عليك - رحي طحونا
 وفي (صفد) أتوك مصفديننا
 ظبي تشفي بها الداء الدفيننا
 سطاك لكان مكتئباً حزيناً

وواضح من خلال القصيدة ان هذا النصر القومي للعرب على الفرنجة كان في الوقت نفسه نصراً للاسلام اذ رد اليه صلاح الدين ما أخذ منه . فغدت عيون العرب قريرة به على حين فاض الدمع حزناً من مآقي الصليبيين .

ذاك يوم أغر أشرفت فيه المنى ، تبرجت طبرية عروساً مجلوة افترعها القائد الظافر .
 ويطيب للشاعر ابن الساعاتي أن يستلهم في قصيدته الطويلة مواطن الاشراق في تراثه العريق ، فيضمن أبياته حيناً بعض آيات القرآن الكريم ، اذ همت الجمادات بأن تقول (ادخلوها بسلام آمنين) ، أو ينسج قوله على غرار بائية بشار مستعيراً صورته الذائعة التي تشير الى أن السيوف في المعركة هي التي كانت تنير قتامة النقع حين أخذت تتهاوى كالكواكب ، فيهتدي ببريقها الفرسان :

يكاد النقع يذهلها فلولا بروق الماضيات لما هدينا

وفي الوقت نفسه هاج النصر قريحة الشاعر ابن سناء الملك فيمن هاج قرائحهم ، فنظم وهو في مصر قصيدة سينية أشاد فيها ببأس صلاح الدين وجيشه يوم حطين فقال (٢٠) :

حططت على حطين قدر ملوكهم ولم تبق من أجناس كفرهم جنسا

ثم أطلب في ذكر خصاله وفعاله في اثر هذا الحدث التاريخي الكبير :

رأيت صلاح الدين أفضل من غدا وأشرف من أضحى وأكرم من أمسى
سجيته الحسنى ، وشيمته الرضى وبطشته الكبرى ، وعزمته القعسا

وفي موكب الفرح الغامر ، اثر معركة حطين ، ينظم الشاعر فتیان الشاغوري ما حدث في ذلك اليوم (٢١) ، فيصف جانباً من تفصيلات المعركة وجزئيات القتال على نحو قلما التفت الى مثله الشعراء في نزوعهم المعهود الى الاقتضاب في الوصف والاسهاب في المديح ، ففي القصيدة نرى طلائع المحاربين الصليبيين يخيلهم ، المظمة ، يعتليها فرسانهم الأشداء وهم يتنادون لقتال العرب ، ويطلقون صيحات الحرب :

جاشت جيوش الشرك يوم لقيتهم يتذامرون على متون الضمّر
أوردت أطراف الرماح صدورهم فولغن في علق النجيع الأحمر

وهذا القول يشير الى ما كان من حقيقة قوة الصليبيين ومدى استعدادهم لملاقاة العرب ، ومنحى الشاعر في الوصف هو عدم التهوين من بأس العدو بل انصافه وبيان قدرته ، وهذا يعيد الى أذهاننا ما درج عليه كثير من شعراء الحماسة عند العرب ، ولا سيما ما عمد اليه عنتر في معلقته ، وتأثر الشاعر هنا بالشاعر الجاهلي واضح على صعيد الألفاظ والمعاني ، بصدد تصوير منازلته لخصمه العنيد ، أو ما نجده في بائنة بشار خلال وصفه لجيش العدو الذي كان في انتشاره كجنح الليل ، وفي عدده كعدد الحصى ، وفي كثرة سلاحه كغابة الشوك ، أو ما كان أخيراً من اشادة المتنبي في ميميته بجيش الروم الذي زحمت أطرافه الآفاق وبلغت زمازمه أذن الجوزاء . . ومع ذلك بدا اليوم من سير معركة حطين أن الصليبيين على قوتهم لا قبل لهم بايقاف المد العربي وليس بوسعهم قهر العرب الذين طالما أعدوا لهذا اليوم ما استطاعوا من قوة ومن رباط الخيل يرهبون به عدوهم . وهكذا استعر لهيب القتال ، وانبرى المجاهدون العرب يذيقون أعداءهم الأهوال ، فلا يفادرونهم كما يقول فتیان الشاغوري الا بعد أن ترتوي رماحهم السمر من دماء الفرنجة الحمر .

وفي المقاطع التالية من القصيدة أيضاً أن أكثر ما كان يرى في زحمة الالتحام ، حيث يفغر فاه الموت الزؤام ، رؤية مجاهد عربي وهو ينقض كالشهاب في اثر مقاتل صليبي يركض بخفة أمامه ركض العفاريت عساه ينجوبجلده من القدر المحتوم :

فهنالك لم ير غير نجم مقبل في اثر عفريت رجيم مدبر

وتنطوي بقية الأبيات أيضاً على اشارة واضحة الى ما دونته كتب التاريخ من تفصيلات معركة حطين ، وما نجم عنها من كثرة الأسرى . حتى بيعت الأسيرات بأبخس الأثمان ، ويذكر المؤرخون أنه بلغ من هوان أسرى الفرنج وكثرتهم أن بيع منهم يومئذ واحد بنعل (٢٢) .

فمن الذي من جيشهم لم يخترم ومن الذي من جمعهم لم يؤسر
حتى لقد بيعت عقائل أرهقت بالسبي بالثمن الأخس الأحقر

ويشيد الشاغوري ، في نهاية المطاف ، ببعض سجايا البطل الأيوبي الكبير تجاه أعدائه ، وكيف أنه جنح للتسامح معهم ، فأمنهم على نسائهم ، وحماهم وذويهم من كل أذى ، كما تقضي بذلك عقيدته السمحة :

آمنت سربهم ، وصنت حريمهم ودرأت عنهم قاصمات الأظهر
ما ان رآك الله الا أمراً فيهم بمعروف ومنكر منكّر
متواضعاً لله جل جلاله وبك اضمحلت سطوة المتكبر

على ان البطل الأيوبي لم يشأ أن يركن للدعة أو يأنس بالراحة ، كما لم يكن ذلك الظفر المبين ليغريه ويزدهيه ، فمضى في طريقه الى النهاية ، وتوالى الأحداث وتواصلت المعارك ، اذ قرعزم صلاح الدين على ألا يدع لعدوه فرصة لجمع شتاته ، وهكذا استولى على مواقع حصينة في الساحل ليمنع وصول النجذات الى الفرنجة في القدس ، وليبقي على خطوط مواصلاته سالمة مع مصر ، كي يضمن وصول المؤن والمدد اليه .

واستطاع القائد العربي اقتحام مدينة الكرك الحصينة ومن بعدها مدينة نابلس ، والاستيلاء على الكثير مما في ربوع فلسطين من مواقع وقلاع . وكان ابن سناء الملك شاعر صلاح الدين يواكب هذه الأحداث ويصف هذه الانتصارات (٢٣) :

هل الكرك الثكلي بأولادها انتهت عن النسل مما جرعته من الثكل
وكانوا لها كالعقد لكنه وهي وأضحى لها جيش ابن أيوب كالغل
أتاهم كمثل الرمل ينقل خيلهم الى الأفق ما فوق الطريق من الرمل

ثم يصف ما كان بعد ذلك من تهاوي ما تبقى من مدن الشام تحت ضربات جيش صلاح الدين وقذف الحصون المعادية بمجانيقه (٢٤) :

فناבלس لما نزلت بربعها أقامت بهم حق الضيافة والنزل
وقد رجمتها المنجنيقات اذ رمت لشيخ لعين كافر جاهل رذل ...

وكان أن تابع القائد صلاح الدين زحفه المقدس ، فيمم وجهه شطر بيت المقدس ، فبلغ أبواب المدينة يوم الأحد ، الخامس عشر من شهر رجب سنة ٥٨٣ هـ ١١٨٧ م . وكانت القدس مدينة حصينة ، تحيط بها أسوار منيعة ، فحاصرها العرب من جميع جهاتها ، ونصبوا المجانيق لذلك أبراجها . وقد احتفى الصليبيون في داخلها بعد أن عقدوا العزم على الدفاع عنها . غير أنهم بعد أن تحملوا الحصار نحواً من سبعة أيام أدركوا أن لا قبل لهم بذلك الجيش الظافر وقوته الضاربة ، ولا سيما بعد أن خضدت شوكتهم ، ووهت

عزيمتهم ، وتحققت في حطين هزيمتهم • فرأوا من الخير حقن دماهم ، وقر رأيهم على رفع رايات التسليم ، وجرت مفاوضات على شروطه • وكان صلاح الدين كدأبه شهماً متسامحاً مع أعدائه ولم يتكبر أو يتجبر •

وفي يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب عام ٥٨٣ هـ، الموافق لمنتصف تشرين الأول من عام ١١٨٧ م دخل الناصر المظفر المدينة المقدسة • وصادف ذلك أن المسلمين احتفلوا في تلك الليلة أيضاً بذكرى ليلة الاسراء • وكان نصراً مؤزراً وفتحاً مبيناً (٢٥) •

وفي اثر ذلك المنعطف التاريخي الحاسم طار صيت الناصر صلاح الدين ، وعم الفرح والابتهاج جموع العرب والمسلمين ، فدوت أخبار انتصاره في كل الأسماع ، وانغمرت بمحبته كل القلوب ، وغدا رجل الساعة وبطل الأبطال •

وما ان بلغت البشرية الجديدة بفتح بيت المقدس بعد حطين ، أرض الكنانة ، حتى هلل الناس وكبروا ، وانطلقت السنة كتابهم وشعرائهم تتبارى في التعبير عن نشوتهم بهذا الفتح المبين ، وكان صوت ابن سناء الملك من مصر صوتاً مدوياً ومنتظراً في عالم الأدب ، وقصيدته كما هو شأن الكثير من أمثالها تجمع بين المديح والحماسة ، انه يخاطب البطل الأيوبي مرة أخرى اليوم بعد أن خاطبه بالأمس القريب في قصيدة سينية سألقة ، حين حط ببأسه يومئذ على حطين ، فيقول :

يا منيل الاسلام ما قد تمنى	لست أدري بأي فتح تهنا
اذ فتحت الشام حصناً فحسناً	قد ملكت الجنان قصراً فقصرنا
حين عادت تلك الشجاعة جبناً	فاستعالت شقائق الكفر صمتنا
هروباً أو الفرار مجناً	أشجع القوم فيهم جاعل الدرع
فجرت فوقها الجزائر (٢٦) سفناً	وجرت منهم الدماء بحاراً
وحويت الأفاق سهلاً وحزناً	قد ملكت البلاد شرقاً وغرباً

كذلك بادر علي بن الساعاتي من جديد وبسؤال المذهول المفتون ، الى تصوير وقع النبا العظيم الذي جلّ عن أن يحيط به نظم من الشعر أو نشر من الخطب (٢٧) :

أعيث ، وقد عايتم الآية العظمى لآية حال نذخر النثر والنظم

وكان طبيعياً في موكب الشعر أيضاً أن يكون للعماد الأصفهاني شاعر صلاح الدين وكاتبه ما يقوله في هذه المناسبة ، مشيداً بنصر مليكه العظيم ، وما كان له على العرب والمسلمين من فضل عظيم • وقد استهل قصيدته بالاعراب عن أساء لمفارقة مولاه منذ أن غادر ذلك القائد أرض الكنانة في حملته الكبرى مجاهداً لتحرير الوطن من دنس الاحتلال ، فقال (٢٨) :

استوحش القلب مذ غبتم فما أنسا وأظلم اليوم مذ بتم فما شمسا

ومن مصر أيضاً صوّر نقيب الأشراف شرف الدين الجواني ذلك الفرح الغامر في اثر انتصارين خالدين : حطين والقدس ، يكاد المرء لا يصدق أخبارهما فقال :

أترى مناماً ما بعيني أبصر	القدس يفتح والفرجة تكسر
ومليكم في القيد مصفود ولم	ير قبل ذاك لهم مليك يؤسر
قد جاء نصر الله والفتح الذي	وعدا الرسول فسبحوا واستغفروا
فتح الشام، وطهرّ القدس الذي	هو في القيامة للأنام المحشر
حيث الرقاب خواضع، حيث العيون	خواشع ، حيث الجباه تعفر
ملك غدا الاسلام من عجب به	يختال ، والدنيا به تبخر

وتعكس القصيدة مشاعر الأمة يومئذ حين أتمتها البشرى بتحقيق الأمل المنشود ، بعد أن غلب التشاؤم على النفوس ، وكاد الناس يستسلمون لليأس ، فلا غرابة بعد ذلك أن يقر لدى المؤمنين بأن ما حدث كان نصراً من الله ووفاء بما وعد به رسوله ، وأن تنطوي الأبيات على العديد من المعاني الدينية المعهودة في مثل هذه الأحوال من التسبيح والاستغفار ، ومن التطهر والقيام والحشر ...

وكان فخر الكتاب الحسن بن علي الجويني قد صور انفعاله بتلك الأيام الغر فقال من قصيدة طويلة (٢٩) :

جند السماء لهذا الملك أعوان	من شك فيهم فهذا الفتح برهان
هذي الفتوح فتوح الأنبياء ، وما	له سوى الشكر بالأفعال أثمان
أضحت ملوك الفرنج الصيد في يده	صيداً ، وما ضعفوا يوماً وما هانوا

وإذا تجاوزنا هذه الأبيات التي استهل بها الشاعر قصيدته وما تلاها من كلام معهود ينطوي على تصوير المشاعر الدينية المتأججة والطابع المقدس لذلك النصر ، فإن الذي يعنينا هو جانب من المضمون الذي أورده الجويني ، وقلّما عثرنا على مثله في كثير من الأشعار . فقد عقد الشاعر بعض المقارنات بين صلاح الدين وعدد من الملوك المتقاعسين الذين سلفوه ، دون أن يلبوا نداء من يستغيث بهم من وطأة الفرنجة وتجبرهم ، فأحجموا عن الجهاد وخانوا البلاد :

كم من فحول ملوك غودروا وهم	خوف الفرنجة ولدان ونسوان
استصرخت بملكشاه طرابلس	فحاد عنها وصمّت منه آذان

ولعل من أهم ما يورده الشاعر في قصيدته أيضاً ، فيما يقارب النزعة التوثيقية ، اشارته الى بعض الحقائق التاريخية ، بل رصده للواقع السياسي والاجتماعي والنفسي لحال العرب عهدئذ قبل أن تكتحل عيونهم بمراى ذلك الفتح المبين :

تسعون عاماً بلاد الله تصرخ	والاسلام أنصاره صم وعميان
----------------------------	---------------------------

ومن هذا القبيل من ميل الشاعر الى النزعة التوثيقية قوله بعد ذلك مبيناً الطابع السريع بل الصاعق للمعارك الكبرى التي استطاع بفضلها صلاح الدين أن يحسم الصراع الى حد كبير بين العرب والفرنجة :

في نصف شهر غدا للشرك مصطباً فظهرت منه أقطار وبلدان
لو أن ذا الفتح في عصر النبي لقد تنزلت فيه آيات وقرآن
وما أجمل المبالغة في هذا البيت الأخير .

وانه لما يسترعي النظر في هذا الغمار من الخطب والأشعار أن تطير أخبار الفتح المبين الى أقصى المعمورة وتلامس أسماع أبناء العمومة العرب في الأندلس ، فتتهز نفوسهم وتخفف عنهم بعض ما كانوا يعانونه من غفلة حكامهم ووطأة أعدائهم ، فدولتهم صارت الى دول ، والفرنجة هنا كما هم هناك أيضاً أعداؤهم . ونحن واجدون صورة لهذه المشاعر في قصيدة نظمها ابن جبير الأندلسي الرحالة الشاعر (٣٠) :

أطلت على أفقك الزاهر سعود من الفلك الدائر
ثارت لدين الهدى في العدا فآثرك الله من ثائر
وقمت بنصر اله الوري فسماك بالملك الناصر
وجاهدت مجتهداً صابراً قلله أجرك من صابر
فتحت المقدس من أرضه فعادت الى وصفها الطاهر
وجئت الى قدسه المرتضى فخلصته من يد الكافر
وأعليت فيه منار الهدى وأحييت من رسمه الدائر
لكم ذكر الله هذي الفتوح من الزمن الأول الغابر
وخصك من بعد فاروقه بها لاصطناعك في الآخر

ولعل بيت القصيد في قصيدة ابن جبير قوله ، وكأنه القرار في نهاية النشيد السعيد :

وأدبر ملكهم في الشام وولى كأمسهم الدابر

★ ★ ★

وانحسر المد الصليبي بعد معركة حطين وفتح القدس ، وبعد الاستيلاء على الكرك ونابلس ، وسقوط عسقلان ، وبقي جزء من الساحل لاذ به الفرنجة وتواصلت منه امداداتهم مع أوربة . وكانت (صور) أمنع معاقلهم الباقية ، حيث تجمعت فيها بقايا جيوشهم المنهزمة . وكان ساحل الشام هدفاً لصلاح الدين ومن قبله نور الدين وعماد الدين بعد أن تمكن فيه الصليبيون وأحسنوا تحصينه ، وقد برزت الرغبة في الاستيلاء عليه من جديد

حتى يغدو النصر كاملاً والطرد شاملاً . وينعكس ذلك في قول شاعر دمشق اسمه سعيد
ابن عبدالله منذ أوائل عهد صلاح الدين وانضمام دمشق الى ملكه :

فاسلم صلاح الدين ، وابق لدوله ذلت لدولتها ملوك زمانها
وانهض الى فتح السواحل نهضة قادت لك الأعداء بعد حرانها

واذ تعود القدس الى حوزة العرب ، تشتد اللفتة على استعادة ما تبقى من مدن
الساحل وفي مقدمتها صور ، وبدا ذلك في قولفتيان الشاغوري يخاطب صلاح الدين :

فانهض لصور فهي أحسن صورة في هيكل الدنيا بدت لمصور

كذلك يثير العماد الأصفهاني قضية صور وسائر مدن الساحل على هذا النحو من
الاهتمام ، ولا سيما بعد تحرير القدس ، وهو الذي واكب بشعره معظم ما سلف من أحداث :

فل للمليك صلاح الدين ، أكرم من يمشي على الأرض ، أو من يركب الفرسا
من بعد فتحك بيت القدس ليس سوى (صور) ، فان فتحت فاقصد (طرابلسا)
وأخل ساحل هذا الشام أجمعه من العداة ومن في دينه نكسا

والتفت صلاح الدين الى صور بعد أن استقدم أسطولا من مصر لمحاصرتها من البر
والبحر ، غير أن الفرنجة أوقعوا بسفنه ضربة على حين غرة في إحدى الليالي ففك عنها
الحصار بعد أن استعصى اقتحامها على جنده الذين أخذ منهم التعب مأخذه ، ووجد القائد
الأيوبي أن من الحكمة عقد صلح مع الفرنجة كي يلتفت الى اصلاح بلاده وراحة عساكره ،
وما لبث الأجل أن وافاه بدمشق في ليلة الأربعاء ٢٧ من صفر سنة ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م ، عن
سبع وخمسين سنة . وكان يعتزم لو امتد به الأجل أن يستكمل اجلاء الفرنجة عن جميع
ربوع الوطن ، بل أن يغزو الجزر التي كانت في عرض البحر ليقطع عن أعدائه خطوط
امداداتهم من الأعتدة والمقاتلين ، وبذلك يتسنى له استئصال جذورهم ومحو أثرهم .

وكان موته حدثاً فاجعاً ، ولم يكن لدويه نظير منذ وفاة الخلفاء الراشدين . وقد ارتاع
له الشعر ، فرثاه أحر رثاء ، وندب فيه تلك الخلال السمحة التي جعلته حبيباً الى القلوب ،
أثراً لدى النفوس ، ورمزاً للدفاع عن حمى الدين وربوع الوطن .

وان ما قيل من شعر ومن نثر في أعقاب هذا النبأ الأليم كان شديد الفزارة ، ويكاد
في معظمه يبكي العظمة والقوة ، والحزم ، والشجاعة ، والعزة والكرامة ، والتقوى
والسماحة . ولعل قصيدة واحدة كقصيدة العماد الأصفهاني تصلح لأن تكون صورة
للمشاعر المريرة في ذلك اليوم الحزين ، كما أن كون أبياتها بلغت مائتين واثنين وثلاثين
بيتاً يشير الى مدى انغماس النفوس بمشاعر الأسى والاجلال :

شمل الهدى والملك عم شتاته والدر ساء ، وأقلعت حسناته

أين الذي عنت الفرنج لباسه ذلاً ، ومنها أدركت ثاراته
لو كان في عصر النبي لآنزلت في ذكره من ذكره آياته
ما كان أسرع عصره لما مضى فكأنما سنواته ساعاته

★ ★ ★

وإذا كان يحسن بالدارس - بعد هذا الرصد النسبي للعديد من النصوص الشعرية - أن يضع هذا الشعر في ميزان النقد محاولاً أن يتلمس طبيعته ويستجلي ملامحه ، ثم أن يجيل فيه النظر ، فيستخلص ماله وما عليه ويخرج بعد ذلك بصورة أمينة وجلية له ، فقد يكون يكون من المجدي أن يفضي بنا القول الى ما يلي :

كان للشعر العربي دور هام في أحداث هذا العصر ، ولا سيما عبر القرن السادس الهجري ، الثاني عشر الميلادي ، وذلك في ظل المثلث القبوي : عماد الدين ونور الدين - صلاح الدين ، وهم القادة العظام الذين عاصروا المد الصليبي في بلاد العرب ثم انحساره ، كما واكبوا الأحداث الجسام وكانوا في كثير من الأحوال هم صانعيها .

وغدا الشعر عهدئذ ترجماناً قوياً لما كان يضطرب به ذلك العصر من وقائع وأحداث ، بعد أن كانت مضامينه ضحلة محدودة . وإن في مواكبة القصائد لأحداث عمرها ، وجعلها من القوافي مرايا لما حولها . . . كل ذلك أعطى الشعر سمة الحياة وطابع الصدق وغدا هذا الشعر الموروث عن تلك الحقبة سجلاً ذا أهمية معرفية في وصف الكثير من الأحوال والملابس ، بل تاريخ ما لا يستطيع التاريخ النهوض به من تصوير منازع الأمة ورصد ضميرها ومشاعرها .

وكان الشعر يحفز القادة والحكام على العمل ، ويقوي فيهم العزم على الجهاد ، ويزيد في نفوسهم الشعور بالثقة والبأس . ومعلوم أن كثيراً من الشعر العربي ، ولا سيما هذا الشعر الملتحم بالأحداث ، شعر محفلي يلقي القاء في المساجد ، أو ينشد انشاداً في المجالس ، بين يدي أولي الأمر وذوي الشأن ، وذلك على ملاء من الناس ، حيث يحرص كل حاكم أو قائد على أن يقع في نفوس القوم الموقع الذي يريدون .

ومن جهة أخرى ، كان كل حادث سعيد من تسلم زمام الأمور أو قهر خصم ، أو تحقيق انتصار على عدو . . . حافزاً يهيج قرائح الشعراء ويضاعف نظمهم ، فتلتئم في اثر ذلك المحافل ، وتنطلق الألسنة على المنابر . . . ويكون لذلك كله وقع في امتاع العامة وارضاء الخاصة ، حيث تغدو للأدب مهمة اعلامية ودعائية بالغة الأثر في تهيئة النفوس وتوعية العقول وتعبئة المشاعر .

وكان الحكام ، ولا سيما القادة في هذا العصر ، يحرصون على حضور هذه المحافل الحاشدة أيام الجمع والأعياد وفي أعقاب تولي الأمور وتحقيق الانتصارات ، فيطربون لما يسمعون من حمد وثناء ، ويجودون على الشعراء بما يكون لديهم من فضل وعطاء .

وعلى صعيد آخر فإن في حرص الشاعر على ذكر مجموعة من أسماء القادة الأعلام والامراء الحكام الذين ارتبطت شخصياتهم بالأحداث ، وكذلك إيراد أسماء البلدان والمواقع والحصون التي كانت مسرحاً لتلك الأحداث . . . كل ذلك كفيل بأن يضفي على تلك القصائد سمة واقعية بارزة . غير أن هذه الواقعية قلما تأخذ أبعادها اللازمة بسبب اغفال الشاعر في أغلب الأحيان للعناصر الزمانية والمكانية الملازمة لمجرى الأحوال وسير الوقائع ، والمرتبطة بطبيعة القتال وطابع العراك ، أو ما يكون من التصدي والالتحام ، أو ما يتصل بذلك من كر وفر ، ومطاردة ومصالوة ، أو صيحات الحرب وحملات الخيل ، أو صليل السيوف وتشاجر الرماح . . الخ . فكثيراً ما يجنح الشعراء ، على معهود الأعراف الأدبية السائدة ، الى التعميم والمبالغات ، وينجم عن ذلك في نهاية الأمر غلبة التسطح على القصائد وافتقادها عناصر الرصد التسجيلي والتصوير الواقعي ، الا ما كان على نحو محدود ومن خلال أشعار قليلة . . . وتبعاً لذلك كله توارت خصوصية هذا الشعر ، وغلب عليه التشابه ، واختلطت خلاله النماذج ، وكان ان افتقد قدراً كبيراً من الجدة والطرافة ومن التميز والأصالة .

وقد يكون من العسير أحياناً - في مقابل غياب الصفة التوثيقية لجانب من هذا الشعر - أن يتمكن الدارس من التمييز بين القصائد التي كانت تقال في العديد من المناسبات ، كوصف معركة أو تهنئة بنصر . . . كذلك يصعب الاهتداء خلال هذه الأشعار الى مناسبات هذه القصائد وفرز ما كان منها مثلاً في أعقاب الظفر في حطين أو فتح القدس . . . فالشاعر العربي نفسه يؤثر التحدث في العموميات ويطيب له أن يحوم في فلك السجاياء المثلى والخصال المجردة ونحو ذلك مما يصلح لأن يقال في أحوال متعددة وأزمان متباعدة .

وان استقراء الأشعار التي تجاوبت فيها أصداء الفزو الصليبي يشير بجلاء الى أن محورها كان صورة البطل ، وما ينطوي عليه من الخصال والفعال ، ومن ثم تمجيده ونسبة الفضل اليه ، وهذا منحي يمكن تقبله وفهم دواعيه لأن الانعطاف الذي تحقق بخروج العرب من عهد الضعف والتمزق الى عهد المنعة والتلاحم انما مرده الى همة أفراد بعينهم جاد بهم الزمان على الأمة بعد طول قحط واحتباس ، فكان أن أنجبت تلك الأيام قادة عظاماً مثل عماد الدين ونور الدين وصلاح الدين وأمثالهم ، الذين ألفوا القلوب المتنافرة وجمعوا الجهود المبعثرة ، ورأبوا الصدع ، ووحدوا الشمل . . . وكان كل ذلك ايذاناً بنصر من الله وفتح قريب . .

ومع ذلك وبرغم التركيز على صورة البطل الفرد وما تنطوي عليه في أغلب الأحيان من مبالغات معهودة ، فإن الشعراء لم يغفلوا دوماً المجهود الجماعي للمجاهدين وسائر المقاتلين في الجيوش المظفرة ، لأن هؤلاء في حقيقة الأمر هم الذين يجودون بالأرواح ويصنعون النصر ، ومثل هذا المنحى ظاهر في قول ابن القيسراني (٣٢) :

وجند كالصقور على صقور اذا انقضوا على الأبطال صادروا
اذا أخفوا مكيدتهم أخافوا وان أبدوا عداوتهم أبادوا

ولعل من الأسباب التي أدت الى افتقار القصائد المدحية - الحماسية التي نظمت في عصر الغزو الصليبي لذلك التميز المطلوب في العمل الأدبي وللتألق المنشود في النص الشعري انما يرجع الى أن الشاعر في تلك المرحلة قلما كان شاهداً للمعركة يراها من كثب ويعاينها من قرب ويعيش أهوالها وينفعل بأجوائها . . . كما كان شأن السالفين من الشعراء الفرسان ، أو ما كان من شأن بعض الشعراء في عصور لاحقة ممن لزموا القادة في غزواتهم وصحبوهم في حلهم وترحالهم ، مثل أبي تمام الذي كان في ركب الخليفة المعتصم يوم وقعة عمورية ، ثم أبي الطيب الذي كان في صحبة أميره سيف الدولة أبان معركة الحدث . . وما من ريب أن مثل هذا الشرط لم يكن تحقيقه يسيراً على كل شاعر . ومن جهة أخرى فان تسارع الأحداث وتباعد البقاع كانا يحولان غالباً دون مثل هذه المشاركة من قبل الشعراء . وكثيراً ما كانت قصائد التهنية والمديح والتمجيد ترد من أصقاع عربية واسلامية بعيدة قد تبلغ أقصى خراسان أو أقصى الأندلس ، تبعاً للطابع الشمولي للأحداث الذي تجاوز النطاق المحلي المحدود ، الى رحاب الجهاد الديني والقومي الشامل .

ومن طوابع الشعر الحماسي في ذلك العصر ، ان أكثر الشعراء في قصائدهم الجهادية دأبوا على تناول هذا الموضوع المتصل بالأحداث على انه موضوع مدحي يدخل ضمن الاطار الشامل لذلك الغرض البارز من أغراض الشعر العربي . . . وهذا المفهوم السائد والمتوارث عند الشاعر كان يقوده بطبيعة الحال الى التركيز على شخصية البطل أو القائد أي على شخصية المدح ، بحيث يتخذ محوراً ومنطلقاً لأوصاف جزئية ومعان جانبية تتصل بصفاته قبل كل شيء ، وتغدو معها سائر العناصر الملحمية ثانوية تدور في فلك هذا الفرد الموصوف أو المدح .

واعتماداً على هذه المعطيات اتكأ الشعراء في تصوير معارك ومدوحهم على الأوصاف السائدة في الشعر الحماسي الموروث ، ولا سيما قصائد أبي تمام والمتنبي ، وذلك لعدد من الأسباب ، أولها منزلة هذين الشاعرين ومالهما من هالة في النفوس ، ومنها أيضاً قرب العهد من هذين الشاعرين العباسيين ، كذلك تشابه الظروف والمواقف والمعارك تجاه عدو واحد بالأمس واليوم وهو الفرنجة : روماً وصليبيين . .

لقد كان النموذج الشعري في كثير من الأحيان ماثلاً في الأذهان ، وسرعان ما كان الشيء بالشيء يذكر ، فتقفز الى الذاكرة روائع شعرية حافلة بالملامح الملحمية مثل بائية أبي تمام في (عمورية) المعتصم ، أو ميمية المتنبي في (حدث) سيف الدولة . . فيكون لشعراء الحقبة الصليبية من ذلك معين ثريتكئون عليه ، ويفتخرون منه . ومع ان هذا المنحى يغري بالتباري ويحض على التجويد الا أنه في الوقت نفسه يبقى الشاعر دائراً في فلك الشعراء الآخرين ، يستمد من معانيهم ويمتخ من صورهم على حين ينأى بشعره عن سمات الابداع وملامح الأصالة .

يضاف الى ذلك أن نأي شعراء هذه الحقبة المتأخرة نسبياً عن العصور العربية الأولى وما كانت تفتقر اليه من مقومات العظمة الماضية ، وعناصر المنعة السالفة ، حال دون تشبعهم بالنسج المنشود لشعرهم ، اذ كان الجوال غالب عليهم قبل أن يفرض على العرب

والمسلمين الواقع الجديد في اثر الاجتياح الصليبي هو الحياة برتابتها ، وما كانت تنطوي عليه من ممارسة الحكام والناس للشؤون المعيشية المعتادة ، وأمور عيشهم اليومي . . . كل ذلك يعني أن شخصية الشاعر عهدئذ لم تكن مهياة للعنف والصدام ، ولا معدة لروح المواجهة والتصدي ، بل كانت أليفة أغراض المديح والثناء وموضوعات الوصف والزهد . . . حتى شعر الحماسة نفسه ، وهومن أوسع الأغراض في الشعر العربي عبر العهود السالفة لم يعد له قبل الغزو الصليبي حيز حقيقي في الساحة الأدبية ، وقل من كان يمارسه من الشعراء لقله مظاهر البأس وغياب الكثير من ملامح القوة لدى حكام ذلك العهد ورجاله .

وقلما كانت قصائد ذلك العصر تتجاوز السرد والنقل في اطار الوصف المهود .

وأخيراً ، لعل من أهم أسباب عدم تألق كثير من الشعر الذي قيل في ظل الحروب الصليبية ، غلبة المنحى اللفظي ، وسيادة الزينة البديعية على الذوق الأدبي العام ، فقد غدت عناصر السجع والجناس وغيرها من الزخارف الأسلوبية تياراً فنياً طاغياً قلما برىء منه كاتب أو شاعر . . . وطبيعي ان هذا يعني طغيان الشكل على المضمون في الأدب ومن ثم افتقاد التعبير الفني في كثير من الأحيان لمقومات العبارة المتوثبة والصورة الحية .

وقد يكون في نهاية المطاف من أهم سمات الشعر في ذلك العهد من الوجود الصليبي في أرض العرب ان ذلك العصر لم ينجب شعراء كباراً في مستوى الفحول المتقدمين بحيث يكونون قادرين بما أوتوا من مواهب أن يعبروا عن أحداث عصرهم الجسام وانتصاراته العظام . لقد كانت قرائحهم قليلة ، لم تسعفهم على أن يرقوا في فنهم الى مستوى تلك الأحداث المتفاقمة ومعانقة نبضها المتسارع .

ان ما نهض به الأفذاذ كعماد الدين ونور الدين وصلاح الدين من أعباء جسام ومهام عظام ، في ظل واقع سياسي مضطرب ممزق ، انما يفوق الى حد كبير ما قام به بعض الخلفاء العباسيين ثم القادة الحمدانيين . . ولكنهم برغم ذلك لم يحفظوا بشعراء مبدعين على النحو الذي جاد به الدهر على أسلافهم . لقد كانت أجنحة الشعر في ذلك العصر أوهى من أن تنهض بتلك الأمجاد والبطولات . وهذا ما يجعل المرء يتساءل بحسرة : ماذا كان يمكن أن يكون عليه حال أدبنا العربي لو أن القدر أتاح لعباقرة الحرب والفروسية ابان الصراع العربي الصليبي شعراء كباراً يوازنون عظمتهم بما يقابل ذلك من مواهبهم ، ويكونون في مستوى الفحول المتقدمين الذين جاد بهم الزمان في العصور العربية السالفة مثل بشار وأبي تمام ومثل أبي الطيب وأبي فراس . . .

★ ★ ★

□ الحواشي :

- ١ - انظر : الأدب في بلاد الشام ٣٧ - ٤٣ ، الدكتور عمر موسى باشا ، ط ٢ دمشق ١٩٧٢ .
- ٢ - الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية ، ٤٣٤ ، د . أحمد أحمد بدوي .
- ٣ - خريدة القصر - قسم شعراء الشام ١ : ٤٠٦ .
- ٤ - خريدة القصر ١ : ٤١٢ .
- ٥ - خريدة القصر ٢ : ٤٠٢ .
- ٦ - كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ٢ : ١٦ - ١٧ ، شهاب الدين أبو شامة . مصر ١٢٨٨ هـ .
- ٧ - وفيات الأعيان ٢ : ٤٠٣ ابن خلكان .
- ٨ - كتاب الروضتين .
- ٩ - ينظر كتاب صلاح الدين ، د . أحمد أحمد بدوي ٥٣ ، ٥٤ ، ٧٢ .
- ١٠ - ينظر : صلاح الدين الأيوبي بين شعراء عصره وكتابه ٥٥ - ٦٢ ، د . أحمد بدوي . القاهرة ١٩٦٠ .
- ١١ - صلاح الدين الأيوبي بين شعراء عصره وكتابه ٨٣ ، الدكتور أحمد أحمد بدوي . القاهرة ١٩٦٠ .
- ١٢ - المطرق : الطريق المعهد .
- ١٣ - الأدب في العصر الأيوبي ٤٢ ، الدكتور محمد زغلول سلام . القاهرة ١٩٦٨ .
- ١٤ - كتاب الروضتين ٢ : ٧٥ أبو شامة .
- ١٥ - حطين : قرية بفلسطين تقع على هضبة ، يقال إنها تضم قبر النبي شعيب .
- ١٦ - كتاب الروضتين ٢ : ١١٣ .
- ١٧ - انظر ما كتبه الدكتور عمر موسى باشا عن الشاعر في كتابه « الأدب في بلاد الشام » ، ص ٢٦٤ ، ٤٣٤ .
- ١٨ - صلاح الدين الأيوبي بين شعراء عصره وكتابه ٩٢ - ٩٨ . د . أحمد أحمد بدوي .
- ١٩ - العجون : جبل بمكة .
- ٢٠ - النجوم الزاهرة ٦ : ٣٤ ، وأيضا كتاب الروضتين ٢ : ١١٣ .
- ٢١ - انظر : الأدب في بلاد الشام ٢٨٨ - ٢٩٦ ، الدكتور عمر موسى باشا .
- ٢٢ - ينظر كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ٢ : ٨٢ شهاب الدين أبو شامة ، مصر ١٢٨٨ هـ .
- ٢٣ - ابن سناء الملك ١١٣ - ١١٤ ، محمد إبراهيم نصر ، سلسلة أعلام العرب ، مصر ١٩٧١ .
- ٢٤ - ينظر كتاب الروضتين ٢ : ٨٧ .
- ٢٥ - يستدل مما ذكره المؤرخون بعد مقارنة التقويمين الهجري والميلادي أن فتح القدس تم في خريف عام ١١٨٧م وفي حدود منتصف تشرين الأول ، وتكون بذلك عدد الأيام التي فصلت بين معركة حطين (١٤ ربيع الآخر) وفتح القدس (٢٧ رجب) هو مئة يوم .
- ٢٦ - الجزائر : مفردها جزور أي الشاة المذبوحة .
- ٢٧ - صلاح الدين الأيوبي بين شعراء عصره وكتابه ١٠٦ .
- ٢٨ - ابن سناء الملك ١١٦ ، محمد إبراهيم نصر ١٩٧١ .
- ٢٩ - كتاب الروضتين ٢ : ١٠٤ - ١٠٥ ، أبو شامة ١٠٠ .
- ٣٠ - ينظر صلاح الدين بين شعراء عصره وكتابه ١٠٧ .
- ٣١ - صدى الفزو الصليبي في شعر ابن القيسراني ١١٤ .